الهجرة كوسيلة لرفض الاحتلال والحفاظ على دعائم الشخصية الجزائرية

Immigration as a means of rejecting the occupation and preserving the components of the Algerian personality

أ.د/ العربي بلعزوز

- جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف (الجزائر)

l.belazzouz@univ-chlef.dz

تاريخ الاستلام: 2025/1/12 تاريخ القبول: 2025/2/7 تاريخ النشر: 2025/6./27

ملخص:

إنّ مقارعة الجزائريين للمعتدي الفرنسي والنفور منه كان منذ البداية؛ وتجلّى ذلك النفور في مقاومته كلّما سمحت بذلك الإمكانيات والظروف، كما تجلّى في ظاهرة الهجرة رغبة منهم في الابتعاد قدر الإمكان عن ذلك الكافر الهمجي والمتوحّش، كما اصطلح على تسميته إذ ذاك. كانت وجهة تلك الهجرات نحو البلدان المجاورة وإلى الشام أيضا منذ البداية لمن امتلكوا إمكانيات مادية لتحقيق ذلك، أو كانوا يقيمون بمحاذاة الحدود الشرقية والغربية للبلاد، أما أولئك الذين لم افتقروا إلى مقدّرات ذلك من أهل المدن بالخصوص فقد آثروا الهجرة الداخلية إلى المناطق المحصّنة طبيعيا أو تلك التي لم يكن قد وصلها المحتل بعد. وفي كلتا الحالتين كان هاجس الجزائريين الكبير هو التخوّف من فقدان دعائم شخصيتهم الأساسية وفي مقدّمتها المعتقد ومكوّنات الهويّة المحليّة.

تسعى هذه الدّراسة إلى الحديث عن هذا النّوع من المقاومة التي انتهجها الجزائريون حفاظا على المعتقد والعرض والهويّة باعتبارها أساسيات الخلاص والتحرّر؛ فالهجرة كانت طيلة القرن 19 وإلى غاية بداية العشرية الثانية من القرن 20 لأسباب دينية، ووجهاتها كانت لاعتبارات دينية أيضا في الغالب، وذلك من خلال نماذج عن الهجرة الخارجية إلى بلاد الشام بالخصوص، ونماذج أخرى عن الهجرة الدّاخلية.

يستهدف البحث الإجابة عن الإشكالية التالية: كيف ساهمت الهجرة بنوعيها: الداخلية والخارجية في التعبير عن رفض الاستعمار والمحافظة على مقومات الشخصية الجزائرية، وذلك بالاعتماد على وثائق ومصادر تاريخية وكذا دراسات أكاديمية أجنبية حديثة، متّبعا في ذلك المنهجين التاريخيين الوصفي والتحليلي.

كلمات مفتاحية: السياسة الاستعمارية، الهجرة الداخلية، الهجرة الخارجية، سوريا، الأحوال الشخصية الجزائرية، الأمير عبد القادر، رفض الاستعمار.

Abstract:

The Algerians' opposition to the French aggressor and their aversion to it occurred from the beginning, was the phenomenon of immigration, their desire to distance themselves as much as possible from that barbaric and savage infidel. The destination of these migrations was towards neighboring countries and to the Levant from the beginning for those who had the financial capabilities to achieve this, or were residing along the eastern and western borders of the country. As for those who did not have the capabilities to do so, especially city dwellers, they preferred internal

migration to naturally fortified areas or those that the occupier had not yet arrived, in both cases; the Algerians' great concern was the loss of the foundations of their personality, most notably the Islamic religion and the components of local identity.

This study seeks to talk about this type of resistance that Algerians have adopted in order to preserve belief, honor, and identity as the basics of salvation. Migration throughout the 19 th century and until the beginning of the second decade of the 20 th century was for religious reasons, its destinations were for religion reason as well, through models of internal migration.

Keywords: Colonial policy, internal migration, external migration, Syria, Algerian personal status, Prince Abdul Qader, Rejection of colonialism.

ليست الغاية من هذه الدراسة هو التطرّق إلى موضوع هجرة الجزائريين خلال الفترة الاستعمارية لسببن:

ـ أولا: لأن الموضوع طويل ومتشعّب ويحتاج إلى مجال زمني أوسع وفضاء مكاني أرحب.

ثانيا: لأن موضوع الهجرة كتب عنه الكثير من الباحثين المحليين والأجانب؛ ولعلّي اكتف بذكر كل من: عمار هلال، نادية طرشون، وشارل أندري جوليان، وشارل روبير آجيرون، وكمال كاتب، وغيرهم كثير.

ولذلك؛ فالغاية من هذا البحث، هو الحديث عن شكل آخر من أشكال مقاومة الجزائريين للمحتل من خلال الابتعاد عنه حرصا منهم على المحافظة على المقومات والقيم والثوابت التي تشكّل شخصيتهم وهويتهم، والتي لا يجب التفريط فيها في أيّة ظروف؛ لأنّها هي ذات الأحوال الشخصية التي سهّلت اندلاع الثورة المباركة في نوفمبر 1954م.

إن المستعمر الذي حمل رسالة حضارية في ظاهره (نظريا)، سعى عمليا إلى الاعتداء منذ الأيام الأولى على المقدّسات: من معتقد ومساجد باستهدافه للأوقاف التي كانت المؤسسة التي تحمي المنظومتين: الدينية والثقافية، كما ارتكبوا أيضا مجازر شتى في حق الجزائريين ارتكبت هنا وهناك في الجزائر (العوفية 1832، محارق الظهرة 1845) وأكتفي بهذا فقط، لأنّ الأمثلة عديدة وعبر محطات تاريخية كثيرة ومتباعدة. هذا، علاوة على سياسة الأرض المحروقة التي انتهجها بيجو بالخصوص (1841-1847)، بالإضافة إلى سياسات التجويع والتفقير والتجهيل والاستعباد. ولعلّ العبارة: " اللهم ظلم الأتراك ولا عدل الفرنسيين" التي

احتوتها رسالة حمدان بن عثمان خوجة إلى ابراهيم بن مصطفى باشا سنة 1836، تلخّص أحسن تلخيص الوضع العام مع بداية الاحتلال، بل طيلة فترة الاحتلال، ولعلّ العبارة الثانية التي تلفت الانتباه أيضا في ذات الرسالة هي: «من محبّكم الغريب حمدان كان الله له"[1].

1. الهجرة وسيلة من وسائل المقاومة ورفض الاحتلال

عبّر الجزائريون منذ بداية الاحتلال على رفضهم للاحتلال بطريقتين:

- المقاومة المسلّحة؛ وهناك نماذج كثيرة لها من بداية الاحتلال إلى غاية منتصف العقد الثاني من القرن 20.
- المقاومة السّلمية: تشكّل اقتناع شبه عام لدى الجزائريين منذ بداية الاحتلال بأنّ المستعمر البغيض يستهدف سلخهم عن الهوية العربية الإسلامية، وأخذ أراضيهم وممتلكاتهم لأنهم لم يكونوا سذّجا بكل تأكيد، فحاربوه بالسّلاح، ومن تعذّر عليهم ذلك فضّلوا الابتعاد عنه باعتباره خطر أكيد مهدّد للمعتقد وللهوية بشكل عام.

أ. الهجرة الداخلية

لقد أغفل الكثيرون ممّن بحث في موضوع الهجرة هذا النّوع من النزوح الذي حصل بغاية الابتعاد عن الاستعمار وممارساته الهمجية بل اللاإنسانية في الكثير من الحالات، ولا أدلّ على ذلك من تزامن هذا الحدث مع وصول القوى الغازية إلى المدن الكبرى بالخصوص: مدينة الجزائر شهر جويلية 1830، ثم البليدة في شهر نوفمبر من ذات السنة، ثم مدينة وهران في الشهر الموالي (ديسمبر) من ذات السنة، ثم عنابة

[1] ANOM. GGA.1H/1 رسالة من حمدان خوجة إلى إبراهيم باشا، 1836.

سنة 1832، ثم جاء الدّور على قسنطينة سنة 1837م، ثم تلمسان سنة 1842م ... وبحكم أن المستعمر كان واحدا، وسياسته في التعامل مع السكان والعمران هي واحدة بغض النظر عن الجهة، فإن السكان المحليين عمدوا إلى إفراغ المدن فرارا من المحتل الذي كان يستهدف بنظر كل جزائري الأرض والعرض والهويّة، مفضلين الاحتماء بالمناطق الأكثر تحصينا (المغارات كما حدث في جبال الظهرة)، أو الاحتماء أيضا بالمناطق التي لم يكن المستعمر قد سيطر عليها بعد..

وللوقوف على حجم ظاهرة الهجرة الداخلية (النزوح) سأكتفي بسرد ثلاث نماذج كنت قد أشرت إليها في موقع آخر:

- إن مدينة الجزائر لم تسترجع الثلاثين ألف ساكن من الذين كانوا بها سنة 1830 إلا سنة 1901م.
- حسب إحصاء أجري في 4 فبراير 1832 لسكان مدينة وهران نلاحظ التالي: عدد اليهود بالمدينة: 2876 نسمة، وعدد الأوربيين حديثي العهد بالمدينة بلغ 730 نسمة، ولم يتعدّ عدد المسلمين بها **250** نسمة، بعدما كان عدد سكان المدينة منهم يفوق **10000** نسمة.
- في مدينة تنس، أشارت الوثائق إلى أن عدد سكانها سنة 1846 كان كالآتي: 2458 أوربي مقابل 64 جزائري فقط[2].

وقس على ذلك في مختلف المدن الجزائرية؛ الأمر الذي يجعلنا نستنتج بأن سياسة الهمجية والبطش التي سلكها الجيش الفرنسي كانت

[2] العربي بلعزوز، الهجرات الأوربية إلى الجزائر من بداية الاحتلال إلى غاية الثورة التحريرية، تطورها وتأثيراتها، دار نور للنشر، ألمانيا، 2017، ص 41.

مقصودة، بل ومبرمجة بقرار سياسي بهدف خلق ما يسمى بمفعول الصّدمة الأولى.

هذه العيّنات، توضّح بجلاء بأن الجزائريين فضّلوا تأمين أرواحهم ومعتقدهم على ممتلكاتهم وماديّاتهم.

وقد يسأل السائل كم كان يكلّف السّفر إلى الشام مثلا مع نهاية القرن 19 بعدما فرضت الحماية على تونس 1881، وعلى مدينة وجدة منذ سنة 1906. للإجابة على ذلك أورد ما تضمنته رسالة من أحد الجزائريين في الشام إلى أحد أفراد عائلته بمنطقة القبائل سنة 1896:

كانت الرّسالة من علي النكاسي إلى أحد أقاربه ويدعى محمد بن سعيد، كانت قد استولت عليها الإدارة الاستعمارية في (أزفون) بتيزي وزو، ومن بين ما جاء فيها:

إلى غاية تيزي وزو يكلّف السّفر 4 فرنك

من تيزي وزو إلى الجزائر العاصمة يكلّف 4 فرنك

الرحلة من الجزائر إلى بور سعيد (مصر) = 10 جنيه بريطاني

من بور سعيد إلى بيروت = 10 فرنك.

من بيروت إلى دمشق = 8.5 فرنك للفرد[3].

هذه الأرقام تخصّ تكلفة سفر الشخص الواحد فقط، علما بأن الهجرات كانت تقوم بها عائلات برمّتها؛ وهو ما يعني أن التكلفة كانت جد باهظة ولا يتوفّر عليها أيّ كان على اختلاف المراحل والفترات التّاريخية،

[3] Hargal Salma, Etre immigré algérien dans l'Empire ottoman, thèse de doctorat en histoire, Université Lyon 2, 2021-2022, p.79.

ولذلك اضطر الكثير من الجزائريين إلى بيع ممتلكاتهم من الأراضي والمواشي للتمكّن من الهجرة، كما ورد في تقريري (لوسياني 1898، ووارني 1911) وغيرهما، مع التذكير بأنّ هذا الاجراء يتعذّر على سكان المدن حيث لا هذه ولا تلك.

تجب الإشارة إلى انّه مع نهاية عشرينيات القرن 20 تحولت الهجرة الداخلية إلى هجرة عكسية: من الأرياف إلى المدن، بعدما قطعت عنهم الإدارة الاستعمارية كل سبل الاسترزاق (المصادرة، تفتيت القبائل، التهجير للاستيلاء على الأراضي، القوانين الجائرة (قانون الغابات)، قانون الأهالي، الفقر والفاقة، ونتيجة لذلك تشكّلت على حواف المدن الكبرى ما بات يعرف بالأحياء القصديرية.

نعم، لقد تحتّم على الجزائري الهجرة إلى موطن المسيحية التي كان قد فر من معتنقيها مع بداية الاحتلال وطيلة عقود بعد ذلك، وهذا التحوّل لم يأت صدفة، بل كان نتاج استراتيجيات استعمارية متصلة ومتواصلة، جعلت من الجزائري، يهجر ليس حفاظا على مقومات شخصيته الاسلامية، بل بسبب الجوع والقهر.

ب – الهجرة الخارجية

عكس الهجرة الداخلية السالفة الذكر، فإن هجرة الجزائريين خارج البلاد خلال الفترة الاستعمارية قد أسالت الكثير من الحبر، وكتب عنها كثيرون من أجناس شتى، بالإضافة إلى باحثين جزائريين كثر باختلاف أزمنتها ووجهاتها؛ ولذلك سأكتفي في هذه الدّراسة بالحديث عن الهجرة التي كانت وجهتها الشّام، ومن زاوية مختلفة تلافيا للتكرار والاجترار، باعتبار أن الشام كانت أهم وجهة للجزائريين خلال القرن 19 وبداية

القرن العشرين، قبل أن تبدأ مرحلة الهجرة الاقتصادية باتجاه فرنسا بالخصوص وبشكل كثيف بعد الحرب العالمية الأولى إلى غاية مرحلة الثورة التحريرية.

هل تنصّل الجزائري في فرنسا عن أُسس شخصيته؟

للإجابة على هذا السؤال، أقول بأن الوطنية والرغبة في الانفصال عن المستعمر ظهرت أول ما ظهرت في بلاد المهجر، وفي فرنسا بالذات بداية بنشاط الأمير خالد، ومصالي الحاج من بعده؛ وهو ما يعني أن الهجرة إلى فرنسا لم تكن سلبية على الاطلاق، كما كان متوقع لها نظريا، بل كانت ايجابية وبشكل واضح، وما جعلها كذلك هو تجذّر أسس ودعائم الهوية الجزائرية لدى هؤلاء المهاجرين، بدليل تشكّل الحزب المنادي بالاستقلال على الأراضي الفرنسية، قبل أن يدخل ذلك التيار الوطني الاستقلالي إلى الجزائر سنة 1937

ولعل من الدّلائل أيضا نذكر دور المهاجرين خلال الثورة التحريرية من خلال ما عرف بتشكيل الولاية السّابعة في المهجر، أما عن دورها التاريخي خلال الثورة فهو متفرّع ومتشعّب وأحداث 17 أكتوبر 1961 خير دليل على ذلك الدّور.

1. بدايات الهجرة إلى الشام

يعتقد الكثيرون بأن هجرة الجزائريين إلى الشام (دمشق) اقترنت بهجرة الأمير عبد القادر إليها سنة 1855، بعدما أمضى ما يقارب السنتين في مدينة (بورصة) التركية بالأناضول 1853-1854، إلاّ أن المتخصّص سيدرك بأن هجرة الجزائر إلى دمشق بالتحديد بدأت منذ نهاية سنة 1847، أي شهور قليلة قبل نهاية مقاومة الأمير عبد القادر

(علما بأنّه تمّ تسجيل حالات من الجزائريين قدموا إلى المنطقة خلال العقد الأول من الاحتلال من المسلمين واليهود وكانت وجهتهم فلسطين بالتحديد.

أول نواة من الجزائريين تشكلت في الشام (دمشق) كانت سنة 1848 من قبل أحمد بن سالم أحد قادة الأمير عبد القادر وآخرون بلغ عددهم 500 شخص.

عشرات الآلاف من الجزائريين استقروا بدمشق وبيروت، حيفا، حلب، القدس وغيرها.

كما استقروا بالآلاف بأرياف طبرية، صفد وضواحي دمشق.

كانت الهجرات أيضا إلى بلاد الحجاز التي كانت تابعة للدولة العثمانية إلى غاية الحرب العالمية الأولى، علاوة على تونس والمغرب الأقصى في وقت سابق.

كما استقطبت مصر منذ سنة 1840 عددا من الجزائريين.

2. الهجرة إلى الشام قبل قدوم الأمير عبد القادر

أشارت بعض الدراسات إلى أن الجزائريين الذين استقروا بالشام مبكرا على غرار أحمد بن سالم (من قادة الأمير)، كثير منهم اشتغلوا بالجندية (الباشي بوزوك)، وذكرت الدراسات شخصية (علي بن عمارة) الذي وصل إلى الشام نهاية 1847. كان بن سالم من الأوائل الذين هاجروا إلى الشام (دمشق) بصحبة زهاء 500 شخص في ذات السّنة. بحكم منصبه السّابق وخبرته العسكرية راسل (بن سالم) السلطان عبد المجيد (1839-1861) من أجل تعيينه قائدا على جنود من أصول مغاربية،

ولقد تمّت الموافقة على طلبه سنة 1849، وكان من بين القوة المغاربية ابن علي بن عمارة السّالف الذّكر[4].

لقد أشاد حاكم دمشق (عثمان نوري باشا) في مراسلاته إلى الباب العالي بانسجام وكفاءة تلك القوّة المغاربية (الجزائرية في الأصل)، وكانت ضمن تلك القوّة المشكّلة عناصر كثيرة من زواوة المنحدرين في الغالب من المناطق الجبلية في الجزائر والتي غادروها بعد وصول الجيش الاستعماري إلى منطقة القبائل، وهو ما يعني أنّ سكان المناطق الجبلية هم أيضا فرّوا من البطش الاستعماري، الذي تعتبر مداخن الظهرة سنة 1845م إحدى انجازاته الهمجية واللاإنسانية.

ولأنّهم من المناطق الجبلية كتبوا عريضة إلى حاكم المدينة طالبوه فيها بالسّماح لهم بالانضمام إلى الجندية، ذكّروا فيها بأنّهم من مناطق جبلية ولذلك فهم لا يحسنون الا ذلك، وفعلا انضم (300 شخص) على الاقل إلى تلك القوّة الجديدة.

ساهم وجود المؤسسات الدينية في الشام أيضا في تحفيز الجزائريين من أهل الدّين إلى الهجرة نحو الشام؛ ولذلك

سجّل وصول عدة شيوخ من الطرق الصوفية (الرحمانية بالخصوص) نهاية سنة 1847 إلى الشام (بعد انتهاء مقاومة الأمير عبد القادر)، وأوردت أسماء عديدة مثل: (الشيخ المبارك، الشيخ أحمد، الشيخ

[4] Sylvain Henry Cornac, L'Emir Abd Al Qadir et les Ottomans : L'Itinéraire du dernier grand Ayan de Damas (1832-1865), Thèse de Doctorat, Université du Québec à Montréal, 2018, pp. 144-148.

الصادق)[5] والذين أثروا تأثيرا أكيدا على الحياة الدينية في دمشق وسوريا بشكل عام.

ولعلّ ما يجب التنويه به هو أنّ رجال الدين الذين غادروا الجزائر نظروا إلى الهجرة من منظور ديني وشبّهوها بهجرة الرسول صلى الله عليه وسلّم من مكّة إلى المدينة، ولذلك قوبل هؤلاء الشيوخ بترحيب خاص من قبل والي دمشق.

وتمثّل طلب أتباع هؤلاء الشيوخ حيازة أراضي لممارسة حرفة الزراعة، لأنهم لا يحسنون الا الزراعة، عكس القبائل سكان الجبال، في حين الشيوخ شرعوا في التدريس في عديد المدارس بدمشق كدار (القيدارية) الخاصة بالجزائريين وانضم إليهم بعض الاعيان المحليين لما سمعوه عن كفاءتهم ودرايتهم.

منذ سنة 1849 بدأ الجزائريون في الانتشار عبر المدن والأرياف المحيطة بدمشق، وكان عددهم زهاء (1500 شخص)[6].

حرصت الادارة العثمانية على ابعاد الجزائريين من المناطق الساحلية حيث الأوربيين، بعد تشكل أولى التجمعات كما هو الشأن بالنسبة لعجلون بصيدا وذلك منذ سنة 1848م، وأصبح (بن سالم) شيخ شيوخ البلدة بعد تعيينه من قبل الباب العالي سنة 1851م.

3. الهجرة إلى الشام بعد استقرار الأمير عبد القادر به

وصل الأمير الأمير عبد القادر إلى اسطمبول بتاريخ 7 جانفي 1853، حيث بقي بها بضعة أيام التقى خلالها بالسلطان عبد المجيد في انتظار

[5] Sylvain Henry Cornac., op., cit, p. 152-153.

[6] Ibid.

انتقاله إلى مدينة (بورصة) التي سيقيم بها. التحقت بالأمير عناصر كثيرة من الجزائريين من العائلة أو ممن خدموا تحت سلطته حينما كان بفرنسا بطلب منه ومنهم، وبلغ عدد هؤلاء 111 شخصا، من بينهم 27 من عائلة الأمير الذين أبحروا معه إلى إسطنبول، أما البقية فقد التحقوا به برّا[7].

وجب التنويه إلى أن الادارة الفرنسية لم تسمح لإخوته الستّة وعوائلهم بالسّفر معه، مفضلة ابقاءهم أسرى إلى غاية سنة 1856، حيث تم ابعادهم إلى مدينة عنابة بالجزائر، قبل أن يرحّلوا بالقرب من الأمير بإلحاح منه سنة 1857، وكان تعدادهم 35 شخصا[8].

بعد وصول الأمير إلى الأراضي العثمانية، التحقت بالمنطقة سنة 1854 نحو 80 عائلة. اشترى لهم الأمير مزرعة، وطلب من الادارة اعفاءهم من الضرائب، ممّا يعكس حرص الأمير على اقامة الجزائريين في ظروف حسنة ولائقة قدر المستطاع.

كان من بين المهاجرين خلال هذه السنة محمد بن عبد الله (الشيخ بومعزة) قائد ثورة الظهرة الذي كان محتجزا في باريس وأخلى سبيله نابليون الثالث وسمح له بالذهاب إلى الدولة العثمانية[9].

فضّل الأمير عبد القادر الاستقرار في دمشق في ديسمبر 1855، حيث حضي باستقبال حار من السلطات العثمانية والمحلية ومن الجالية الجزائرية بالمدينة، وربما كان طلب نقله إلى دمشق بسبب الزلزال الذي تعرّضت له مدينة (بورصة) في مارس 1855م؟

[7] Sylvain Henry Cornac., op., cit, p.272.

[8] Ibid, p.320.

[9] Ibidem, p.246.

من نضالات الأمير عبد القادر، حرصه على الحصول على أراضي زراعية لممارسة الفلاحة على نطاق واسع (حرص الأمير على توجيه أراضيه لزراعة القمح، لدرايته بحاجة أوروبا الماسة لهذه المادة ص 180) بين (1856 – 1858)، وقد يعزى ذلك لإحساسه بمسؤولية اعالة أكبر قدر ممكن من الجزائريين الوافدين من البلاد والمقيمين في دمشق وضواحيها، علما بأننا الأمير كانت له علاقة قويّة بالأرض ولذلك نجده قد امتلك مزرعة حينما كان في بورصة على الأراضي التركية[10].

هذا النشاط، لا يقلل من الدور الديني الذي مارسه الأمير عبد القادر بالشام عموما، حيث اعتبر من أصول شريفة ذات صلة بمحي الدين بن عربي المتوفّى بدمشق سنة 1240م، وخاصة في دمشق بعد تأسيسه لمدرسة بها، ولذلك حضي بتقدير كبير من الأعيان والنخبة الدينية المحلية.

تزايدت هجرة الجزائريين إلى الشام بعد استقرار الأمير عبد القادر بدمشق حتى بعد وفاته سنة 1883م، ولعلّ الرقم المنسوب إلى القنصل الفرنسي في دمشق عن سنة 1881، يقول بأن عدد الجزائريين في مدينة دمشق بلغ 28500 شخص، من بينهم 6800 استقرّوا بعكّا[11].

ولعلّ من بعض آثار الجالية الجزائرية في الشام ما أوردته بعض المصادر الغربية، والتي نورد نموذجين منها:

---

[10] Sylvain Henry Cornac., op., cit, p. 276.

[11] مصطفى عبّاس، الجالية الجزائرية في الجليل أواخر الحكم العثماني حتى عام 1948.
https://www.palestineremembered.com/Safad/Dayshum/Story31606.html

- كتب (فيليكس دو فوغ) في كراسه:« قرية أو مدينة صفد هي بلدة صغيرة عبارة عن واحة من أشجار الزيتون والتين والعنب، منازلها جميلة بها ثلاثة أحياء: حي لليهود، حي للعرب وحي للجزائريين الذين قدموا إلى المنطقة بعد ثورة شعبية منذ 13 سنة»[12]، ربما يتعلّق الأمر بثورة المقراني أو أولاد سيدي الشيخ.
- أمّا (الدكتور لورتي) فأورد في كتابه الآتي:« في الطريق إلى صفد توجد القرية الصغيرة (ديشوم) على ارتفاع 263م، يسكنها جزائريون تبعوا الأمير عبد القادر في منفاه. في وسط هذه القرية مساحة بها أشجار رائعة ومنبع مائي به حوض تسبح بداخلة مجموعة من الأسماك.

العرب الذين يحيطون بنا جزائريون أصليون، يرتدون برانسا بيضاء، إنهم لم يسمحوا لنا بأخذ عيّنة من الأسماك لضمّها إلى المجموعة التي بحوزتنا.

شيخ القرية الكبير القابع تحت شجرة التين، بعدما أدرك ما ننوي القيام به قال لنا بنبرات غير مضطربة: «إنّ هذه الأسماك مخصّصة لمحمّد ! وأنّ ازدهار القرية وسعادة سكانها مرهون بتواجدها وبقائها»[13].

12 Félix de Vogue, Journal du Vicomte Vogue Eugène Melchior, Editions Bernard Grasset, Paris, 1898. P.127.

13 Dr L. LORTET, poisson et reptiles du lac du Tibériade et de quelques autres parties de la Syrie, Henry George Editeur, Lyon, 1883. P.59-60.

أكتفي بالإشارة فقط إلى أن هذه القرية الجزائرية أزيلت من الخريطة سنة 1948.

أما مصطفى عبّاس في دراسته المترجمة فق أورد معطيات أخرى:

تخصّ صفد في شمال فلسطين على الحدود اللبنانية التي تواجدت بها قرى (ديشوم، عموقة، ماروس، الحسينية وتليل) التي تواجدت بها عائلات من البليدة، دلّس ومنطقة القبائل. كما تحدّث عن شرق طبريا أين تواجدت أربع قرى جزائرية هي (عولم، كفرسبت، شعارة ومهذر) بالإضافة إلى طبريا نفسها، التي كان سكّانها في الغالب من منطقة البويرة. كما أشار أيضا إلى مدينة حيفا التي تواجدت بها ثلاث قرى للجزائريين هي (الهوشة، الكساير وبئر المكسور)، التي استقرت بها قبائل من أم البواقي[14].

وللرجوع إلى الحديث عن الأمير عبد القادر، أشير إلى أن هذا الأخير زار الكثير من القرى التي تواجد بها الجزائريون وهو في طريقه لزيارة مدينة القدس سنة في ربيع سنة 1856 ولاسيما في منطقة الجليل.

لقد كان الأمير عبد القادر كفيل الجزائريين في الشام، ثم أضيفت إليه مهمة أو سلطة أخرى هي السّلطة العسكرية بعد أحداث 1860 الشّهيرة، حيث أصبح هو القائد العام للقوّة المغربية (لا تمتّ بأيّة صلة بدولة المغرب) لأنّها كانت تتشكّل بالأساس من جزائريين، وذلك بعد وفاة (أحمد بن سالم) التي يُرجّح أن تكون سنة 1858، ثم خلفه نقيب جزائري آخر هو (علي بن عمارة)، بينما كانت السّلطة الحقيقية والمباشرة بيد الأمير، خاصة بعد أن تمكّن بعلاقاته وديبلوماسيته من

[14] مصطفى عباس، المرجع السّابق.

اقناع القنصل الفرنسي في دمشق بتزويدة ب1000 قطعة سلاح قبل الأحداث بقليل[15].

لقد أضحى للجزائريين في الشام نفوذ اقتصادي وديني وعسكري أيضا، إلى درجة أنّ فؤاد باشا عندما وصل نهاية شهر جوان 1860 الى دمشق، (كوالي) طلب من الأمير مساعدة عسكرية: حيث خصّص له قوّة من (200 فارس و200 من المشاة) للقيام ببعض العمليات في المنطقة، بغرض تطمين العناصر المسيحية بعد المأساة[16]. كما أنّ الأمير حينما اعتزم زيارة البقاع المقدّسة في موسم الحج سنة 1864م رافقته قوّة من فرسانه الجزائريين لتأمين موكبه.

لقد احتفظ الجزائريون بخصوصياتهم الجزائرية في الشام الدينية ولاريب، لكن أيضا خصوصياتهم القتالية لرد المعتدين، ونصرة المظلومين واحلال السّلم والطمأنينة والاستقرار.

4 . الهجرة وإلى غاية بداية القرن العشرين كانت لأسباب دينية بالأساس

خل شهر رمضان من سنة 1911 (أوت . سبتمبر) هاجر محمد بن يلّس (1854-1927) مدينة إقامته ومسقط رأسه بصبحة زوجته، أولاده وبعض من مريديه (أتباع زاويته) حيث كان شيخا سوفيا للشعبة المحليّة التابعة للطريقة الشاذلية بإحدى مساجد تلمسان حيث كان مدرّسا بها بإذن من الإدارة الفرنسية منذ 1836.

[15]Sylvain Henry Cornac, ., cit, p.309.

[16] Ibid, p.310.

كان يشتكي من عدم تمكنه من إقامة حلقاته العلمية، وكذا مذاكرة القرآن ...، ولذلك كانت له عدّة محاولات فاشلة للسّفر إلى أن تمكّن من ذلك سنة 1911 بالذهاب إلى مدينة بيروت عبر ميناء طنجة المغربي[17].

رغم أن دراسته كانت في المغرب، إلاّ أنّه استبعد الذهاب إليه خاصة بعد أن أصبحت وجدة تحت الوصاية الأوربية منذ سنة 1906. كما تجب الإشارة إلى أن 650 شخص من تلمسان وضواحيها هاجروا تلك السنة، وبلغ العدد الإجمالي إلى غاية 1912 (3000) شخص حسب الدراسات.

ولعلّ حرص الجزائري على دينه ومقومات شخصيته هي التي شكّلت الغاية الأساسية من عملية الهجرة، واستمرّ ذلك الحال طيلة فترة الاستعمار فيما يخص الهجرة إلى المشرق العربي، ولعلّ ما يدعّم هذا الرأي مقولة ثانية أوردها صاحبها من منطقة آزفون بتيزي وزو في رسالته السالفة الذكر:

"من يريد مغادرة هذا المكان (سوريا المقدّسة) والمجيء إليكم، سيكون مثل ابليس الذي طرد من رحمة الله"[18]، ولعلّ استعمال كلمة "سوريا المقدّسة"، والاشارة إلى الجنّة ولو ضمنيا يبعد كل الماديات عن هذا الشعور العفوي والطبيعي، وفي ذات الوقت يفنّد ما كتبه ضابط الصف الفرنسي حيث كتب سنة 1864 عن "القبائل" قائلا:

« إن القبائل غيورين على استقلالهم القبلي (البلدي) أكثر من غيرتهم على دينهم[19].»

---

[17] Hargal Salma, op., cit.

[18] Hargal Salma, op., cit.

[19] Le Baron Henri Aucapitaine, Les Kabyles et la Colonisation de l'Algérie, Editions Challamel Ainé, Paris, 1864, p.180.

إنّ هذا القول المجانب للحقيقة لا ينمّ في حقيقة الأمر إلى على تطرّف وهمجية أخرى للجنود الفرنسيين، ولعلّ حجم الزوايا والكتاتيب التي كانت ولاتزال في المنطقة المشار إليها والتي من مهامها الأساسية المحافظة على الدين الإسلامي وتعاليمه السمحاء الراقية أخير دليل على ذلك.

هذا، ولا يجب التغافل على نوع آخر من الهجرة الجبرية هذه المرّة، أو ما عرف بالتهجير التعسّفي، الذي طال المئات من الجزائريين الذين كانوا يشكّلون خطرا مباشرا على التواجد الاستعماري بالجزائر، وكان ذلك باتجاه سانت مارغريت قبالة سواحل مدينة نيس الفرنسية على المتوسط، وإلى غويانا وكاليدونيا الجديدة بالمحيط الهادي، وكونها كلّها هذه المناطق جزر يعكس مدى خطورة هؤلاء، وبطبيعة الحال تفسير الخطورة يعكسه مدى تشبّث المعنيين بخصوصياتهم الدينية والوطنية. وهذا النّوع من الهجرة تحدّث عنه الكثير من الباحثين أيضا.

في ذات السياق، يجب ادراج تهجير آخر، لكن داخل البلاد هذه المرّة، ويتعلّق الأمر بالمعتقلات والسجون التي استهدفت الفئات الوطنية المدافعة عن الأرض والعرض، ومن ذلك ذكرت الباحثة سيلفي تينو:

ـ سجن فلاحي (البرواقية) ـ كنموذج، وأضيف هنا أول سجن استيطاني أقيم في الجزائر (سجن فلاحي) الذي أنشأ سنة 1845م بغرض استقبال الموقوفين من العرب، والذي استغل للمساعدة في العملية الاستيطانية (استصلاح الأراضي وغرس مختلف الأشجار وتربية المواشي...) وهو سجن لالة عودة 4 كلم إلى الجنوب من مدينة الشلف، وأقيم على مساحة 224 هكتار. بلغ عدد الموقوفون به إلى غاية 15 جانفي 1856: 5380 شخص. ولإبراز علاقة هذا المعتقل الاستيطاني في عملية

التهجير؛ نذكر نموذجين هما ل: محمد بن الطاهي من قبيلة صبيح الجنوبية الذي أبعد إلى جزيرة مارغريت، وكذا قدور بن الطاهر من ذات القبيلة بالإضافة إلى مجموعة من السياسيين كما وصفتهم الوثائق هم من: وهران، البليدة، مستغانم وقسنطينة، وكان ذلك بتاريخ 8 جانفي 1853[20].

ولقد أضافت سيلفي تينو في تصنيفها للمعتقلات والسجون:

.سجن المحكوم عليهم (بالحراش).

هذه المؤسسات وغيرها خلال الفترة الاستعمارية اعتبرها تهجير قسري (مثلها مثل المحتشدات خلال الثورة التحريرية) لأنها كانت تؤدي مأمورية استعمارية، ولأنها أيضا كانت تستهدف المتمسكون بالهوية والأحوال الشخصية والغيورين على الأرض والعرض والمعتقد.

رغم أنّ الباحثة أشارت إلى أن هذه السّجون كانت أقل وحشية مقارنة بالتدخلات العسكرية[21]، وهو أمر مجانب للحقيقة في الواقع وغير دقيق، لما نعلمه من حالات الوفاة التي كان يشهدها سجن (لالا عودة) بالشلف خاصة في خمسينيات القرن 19م.

خاتمة:

جل الدراسات أهملت الحديث عن الهجرة الداخلية، من المدن إلى الأرياف والمناطق التي لم تطلها التوسع الاستعماري بعد، بل الهروب كان

[20] ANOM. GGA, 7015/45.

[21] Sylvie Thénault. Violence ordinaire dans l'Algérie coloniale. Camps, internements, assignations à résidence. 2012. hal-02355900. .

حتى في الأرياف باتجاه المغارات والكهوف للاختباء بعد لأن ذاع لدى الجميع همجية ودموية الجنود الفرنسيين.

إنّ الهجرة إلى خارج الوطن كانت فرارا من البطش والتنكيل والتغريب والتمسيح والتي كانت وجهتها في البداية إلى الجارتين تونس والمغرب الأقصى، ثم باتجاه بلدان عربية أخرى كمصر والحجاز، ثم الشام بعد انتهاء مقاومة الأمير عبد القادر سنة 1847، واستقرار هذا الأخير به.

إنّ المؤسسات العقابية كالسّجون وغيرها خلال الفترة الاستعمارية اعتبرها تهجير قسري (مثلها مثل المحتشدات خلال الثورة التحريرية) لأنها كان تؤدي مهمة استعمارية، مثلها مثل المعتقلات التي أقيمت في كاليدونيا الجديدة، وغويانا وسانت مرغوريت التي خصّصت للمبعدين (المنفيين) من الجزائريين الذين كانوا يشكّلون خطورة على المشروع الاستعماري في الجزائر.

ـ الهجرة لم تكن طيلة القرن 19 هجرة اقتصادية، ولم تكن في الغالب سياسية بالمفهوم المتعارف عليه (اللجوء)، بل كانت دينية هوياتية.

منذ النّصف الثاني من القرن 19 شرع الفرنسيون المولودون في الجزائر بتسمية أنفسهم بالجزائريين، تمييزا لهم عن الفرنسيين بالميتروبول، في حين أصبح الجزائريون الذين يصلون إلى الشام (بتدخل البعثات الديبلوماسية الفرنسية) يصنّفون كرعايا فرنسيين، وهذه مناورة استعمارية هدفت بها الإدارة الاستعمارية إلى اقتلاع وتحييد السكّان الجزائريين المحليّين من أرضهم، وفي ذات الوقت تمييع وتهميش الشخصية والكيان الجزائري المتواجد في الشام ممثلة في الرّعايا الجزائريين. وتبقى الحقيقة التّاريخية هي أن لا هؤلاء فرّطوا في أرضهم

ولا أولئك فرّطوا في شخصيتهم وهويّتهم ومعتقداتهم، وهم يفتخرون إلى اليوم بجذورهم الجزائرية.

قائمة المصادروالمراجع:

1 - ANOM. GGA.1H/1.1836 رسالة حمدان خوجة إلى ابراهيم باشا،

2 - ANOM. GGA, 7015/45.

3 - Le Baron Henri Aucapitaine, Les Kabyles et la Colonisation de l'Algérie, Editions Challamel Ainé, Paris, 1864.

4 - Dr L. LORTET, poisson et reptiles du lac du Tibériade et de quelques autres parties de la Syrie, Henry George Editeur, Lyon, 1883.

5 - Félix de Vogue, Journal du Vicomte Vogue Eugène Melchior, Editions Bernard Grasset, Paris, 1898.

6 - بلعزوز العربي، الهجرات الأوربية إلى الجزائر من بداية الاحتلال إلى غاية الثورة التحريرية، تطورها وتأثيراتها، دار نور للنشر، ألمانيا، 2017.

7 – عباس مصطفى، الجالية الجزائرية في الجليل أواخر الحكم العثماني حتى عام 1948.
https://www.palestineremembered.com/Safad/Dayshum/Story31606.html

8 - Sylvie Thénault. Violence ordinaire dans l'Algérie coloniale. Camps, internements, assignations à résidence. 2012. hal-02355900 .

9 - Hargal Salma, Etre immigré algérien dans l'Empire ottoman, thèse de doctorat en histoire, Université Lyon 2, 2021-2022.

10 - Sylvain Henry Cornac, L'Emir Abd Al Qadir et les Ottomans : L'Itinéraire du dernier grand Ayan de Damas (1832-1865), Thèse de Doctorat, Université du Québec à Montréal, 2018.